كُنْ فَيَكُون

قال الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي:

«يَا عِبَادِي.. لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِد، فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَان مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ.

فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلَّا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ.

ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ، أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِنَّمَا أَمْرِي بِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ:

كُنْ فَيَكُونُ»[(١)].

القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت، ولا تحتاج إلى مجهود وعمل، بل في حقِّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ.. كُنْ كذا وانتهتْ المسألة.

فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقتضي أجهزةً كثيرةً لإدارته، فاعلم أن اللَّه تعالى لا يباشر تدبيرَ أمر الكون بعلاج، يفعل هذه ويفعل هذه كما يزاول البشرُ أعمالهم، بل يفعلها بـ [كُنْ].

فيا مَنْ تُشفق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتَّى نواحيه، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر، لأن اللَّهَ تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً في الكون، وإنما يباشره بكلمة [كُنْ].

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [النحل: ٥١].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥)، وأحمد في مسنده (٥/ ٧٧، ١٥٤) من حديث أبي ذر رضي اللَّه عنه. قال الترمذي: حديث حسن. في إسناده شهر بن حوشب، ضعَّفه بعضهم، وقد حسَّن البخاريُّ حديثه وقوَّى أمره.

فإلهٌ واحدٌ يكفي، فمعنى [إلهين]، أي: معبودين، فيكون لهما أوامرُ ونَوَاه والأوامر تحتاج إلى طاعة، والكون يحتاج إلى تدبير، فأيُّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون؟ أم أنه يحتاج إلى مساعد؟ إنْ كان بحتاج إلى مساعد فهذا نقصٌ فيه، ولا يصلح أن يكون إلهاً.

وكذلك إنْ تخصَّص كلٌّ منهما في عمل ما، هذا لكذا وهذا لكذا، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر. وأيُّ ناحية من نواحي الحياة تكون هي المُسيطرة؟ ومعلومٌ أن نواحيَ الحياة مشتركةٌ ومتشابكة.

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فكيف الحال إذا أراد الأولُ شيئاً، وأراد الآخرُ ألَّا يكونَ هذا الشيء؟ فإنْ كان الشيءُ كان عَجْزاً في الثاني، وإنْ لم يكُنْ كان عَجْزاً في الأول. إذن: فقوةُ أحدهما عَجْزٌ في الآخر.

لذلك قال الحق سبحانه عن نفسه: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

فبعد أنْ بيَّنَ اللَّهُ تبارك وتعالى.. أن قولهم: اتخذ اللَّهُ ولداً هو افتراءٌ على اللَّه.. أراد الحقُّ سبحانه أن يلفتنا إلى بعض من قدراته، فقال جل جلاله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ﴾.. [البقرة: ١١٧].

أي: خلق السماوات والأرض وكلَّ ما فيها من خَلق على غير مثال سابق.. أي: لم يكُنْ هناك سماءٌ أو أرضٌ أو ملائكةٌ أو جنٌّ أو إنسانٌ.. ثم جاء اللَّهُ سبحانه وتعالى وأوجد متشابهاً لهم في شكل أو حجم أو قدرة.. أي: أنه سبحانه لم يلجأ إلى ما نسميه نحن بالقالب.

إن الذي يصنع كوبَ الماء يصنع أولاً قالباً يصُبُّ فيه خام الزجاج المنصهر.. فتخرج في النهاية أكوابٌ متشابهةٌ.. وكلُّ صناعة لغير اللَّه تتم على أساس صنع القالب أولاً ثم بعد ذلك يبدأ الإنتاج.. ولذلك فإن التكلفة الحقيقية هي في إعداد القالب الجيد الذي يعطينا صورةً لما نريد.

والذي يخبز رغيفاً مثلاً قد لا يستخدم قالباً ولكنه يقلد شيئاً سبق.. فشكل الرغيف وخامته سبق أنْ تمَّ وهو يقوم بتقليدهما في كل مرة.. ولكنه لا يستطيع أنْ يعطي التماثل في الميزان أو الشكل أو الاستدارة.. بل هناك اختلافٌ في التقليد ولا يوجد كمالٌ في الصناعة.

وحين خلق اللَّه جلَّ جلاله الخَلْق من آدم إلى أن تقوم الساعة.. جعل الخلق متشابهين في كل شيء.. في تكوين الجسم وفي شكله في الرأس والقدمين واليدين والعينين.. وغير ذلك من أعضاء الجسم.. تماثلاً دقيقاً في الشكل وفي الوظائف.. بحيث يؤدي كلُّ عضو مهمته في الحياة.. ولكن هذا التماثلَ لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة كُنْ.

ورغم التشابه في الخَلْق فكلٌّ منا مختلفٌ عن الآخر اختلافاً يجعلك قادراً على تمييزه بالعلم والعين.. فبالعلم كلٌّ منا له بصمةُ إصبع وبصمةُ صوت يمكن أنْ يُميِّزَها خبراءُ التسجيل.. وبصمة رائحة قد لا نميزها نحن ولكن تُميزها الكلابُ المدربة.. فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر.. وبصمة شفرة تجعل الجسدَ يعرف بعضه بعضاً.. فإن جئتَ بخلية من جسد آخر لفظها، وإنْ جئتَ بخلية من الجسد نفسه اتحدَّ معها وعالج جراحها.

وإذا كان هذا بعضُ ما وصل إليه العلم.. فإن هناك الكثيرَ مما قد نصل إليه ليؤكد لنا أنه رغم تشابه بلايين الأشخاص.. فإن لكلِّ واحد ما يُميِّزه وحده ولا يتكرر مع خَلْق اللَّه كلِّهم.

وهذا هو الإعجازُ في الخلق ودليلٌ على طلاقة قدرة اللَّه في كونه، واللَّه سبحانه وتعالى يعطينا المعنى العام في القرآن الكريم بأن هذا من آياته وأنه لم يحدثْ مصادفةً ولم يأت بطريق غير مخطط بل هو مُعَدٌّ بقدرة اللَّه سبحانه.. فيقول جل جلاله: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

هذا الاختلاف يُمثل لنا طلاقةَ قدرة اللَّه سبحانه في الخَلْق على غير مثال.. فكلُّ مخلوق يختلف عَمَّنْ قبله وعمَّنْ بعده وعمَّنْ حوله.. مع أنهم في الشكل العام متماثلون.. ولو أنك جمعتَ الناسَ كلهم منذ عهد آدم إلى

يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة.. وكلُّ واحد منهم مختلفٌ عن الآخر.. فلا يوجد بشران من خلق اللَّه كلٌّ منهما طبق الأصل من الآخر.

هذه دقةُ الصُّنع، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ﴾.. والدقة تعطي الحكمة.. والإبراز في صور متعددة يعطي القدرة.. ولذلك بعد أن نموت وتتبعثر عناصرنا في التراب يجمعنا اللَّهُ يوم القيامة.. والإعجاز في هذا الجمع هو أن كلَّ إنسان سيبعث من عناصره نفسها وصورته نفسها وهيئته نفسها التي كان عليها في الدنيا.

ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ [سورة ق: ٤].

إذن: اللَّه سبحانه وتعالى بطلاقة قدرته في الإيجاد قد خلقنا.. وبطلاقة قدرته في إعادة الخلق يُحيينا بعد الموت.. بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرة فينا.. هل هناك دقة بعد ذلك؟

لو أننا أتينا بأدقِّ الصُّناع وأمهرهم وقلنا له: اصنع لنا شيئاً تجيده. فلما صنعه قلنا له: اصنع مثله. إنه لا يمكن أن يصنع نموذجاً مثله بالمواصفات نفسها؛ لأنه يفتقد المقاييسَ الدقيقة التي تُمدّه بالمواصفات نفسها التي صنعها. إنه يستطيع أن يعطينا نموذجاً متشابهاً، ولكن ليس مثل ما صنع تماماً.

لكن اللَّه سبحانه وتعالى يتوفَّى خَلْقه وساعة القيامة أو ساعة بَعْثهم يُعيدهم بمُكوِّناتهم نفسها التي كانوا عليها دون زيادة أو نقص. وذلك لأن اللَّه جلَّ جلاله لا يخلقُ وفق قوالب معينة، وإنما يقول للشيء: كُنْ فيكون.

تقول الآية الكريمة: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

وردتْ كثيراً في القرآن الكريم.. وفي اللغة شيءٌ يُسمَّى المشترك اللفظ يكون واحداً ومعانيه تختلف حسب السياق.. فمثلاً كلمة قضي لها معاني متعددة، ولها معنىً يجمع كلَّ معانيها.. مرة يأتي بها الحقُّ بمعنى فرغ أو انتهى.. في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ﴾.. [البقرة: ٢٠٠].

ومعناها: إذا انتهيتُم من مناسك الحج.. ومرة يقول سبحانه: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

والمعنى: افعل ما تريد.

وفي آية أخرى يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والمعنى: أنه إذا قال اللَّه شيئاً لا يترك للمؤمنين حقَّ الاختيار.

ومرَّة يُصوِّر اللَّهُ جَلَّ جلاله الكفارَ في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت.. واقرأ قوله سبحانه: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا﴾ هنا معناها يُميتنا.

ومعنى آخر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، أي لما انتهى الأمر ووقع الجزاء.

وفي موقع آخر يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ﴾ [القصص: ٢٩]، قضي الأجل هنا بمعنى: أتمَّ الأجل.

وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]، أي: حكم وفصل بينهم.

وقوله جلَّ جلاله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، بمعنى: أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم.

إذن: [قَضَى] لها مَعَان متعددة يُحدِّدها السياق.. ولكن هناك معنىً تلتقي فيه كلُّ المعاني.. وهو قضى أي: حكم. وهذا هو المعنى الأم.. إذن: معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾.. أي: إذا حكم بحكم فإنه يكون.

على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق: ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].. معنى أن الأمرَ موجودٌ عنده.. موجودٌ في علمه.. ولكنه لم يصلْ إلى علمنا.

أي: أنه ليس أمراً جديداً.. لأنه ما دام اللَّه سبحانه وتعالى قال:. كأنه جلَّ جلاله يخاطب موجوداً.. ولكن هذا الموجود ليس في علمنا ولا نعلم عنه شيئاً.. وإنما هو موجودٌ في علم اللَّه سبحانه وتعالى.. ولذلك قيل: إن

للّه أموراً يُبديها ولا يبتديها.. إنها موجودةٌ عنده لأن الأقلامَ رُفعتْ، والصحف جفَّتْ.. ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها فنعلمها.

فالحق سبحانه يخلق بلا أسباب، لأنه أنشأ العالم أولَ ما أنشأ بلا أسباب، بل بقوله: كُنْ. وقد أكد الحق هذا في مواضع كثيرة من قرآنه، نحو قوله تعالى في شأن خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فقال على لسان أمه مريم عليها السلام: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

إنها طلاقةُ القدرة في الإنسال أو الإنجاب أو في عدم التكثير بالنسبة للإنسان، وهي لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، ولو كانت طلاقةُ القدرة متوقفةً على إيجاد ذكورة وأنوثة، فكيف خُلقَ آدم أولَ الخَلْق؟

إن طلاقةَ القدرة في الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة، إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلقَ دون ذكورة أو أنوثة، كخَلْقه لآدم عليه السلام، ويخلق الحقّ سبحانه بواحد منهما كخَلْقه سبحانه لحواء وخَلق عيسى عليه السلام، ويخلق الخالق الأعلى بالذكورة والأنوثة، وهذه تتضح في خلق جمهرة الناس، ولا تظنوا أن باجتماع الذكورة والأنوثة يمكن أن يُحقق الخلقُ، فقد توجد الذكورةُ والأنوثةُ ولا يوجد إنجابٌ.

هاهو ذا القول الحق: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

هذه إرادة الحق.

إذن: فلا تقلْ: إن اكتمال عُنصري الذكورة والأنوثة هو الذي يُحدث الخَلْق، لأن الخَلْق يحدث بإرادة الحق. ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]. فأنتم أيها المُحدثون تفعلون بالأسباب، لكن الذي خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذي بيده أنْ يُوجد بلا أسباب، لأنه أنشأ العالمَ أول ما أنشأ بدون أسباب.

ولا يوجد عندنا أقصر في الأمر من كلمة [كُنْ] فقدرته قادرةٌ بطلاقتها أن

تسبق نطقنا بالكاف وهي الحرف الأول من كُنْ، ولكن الحق سبحانه يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور، و [كُن] هي مجرد إظهار الأمر للخلق، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم عليها السلام بـ ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥].

لذلك، فالحق سبحانه حين يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألَّا يكون، والدليل قوله تعالى عن الأرض: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]، أي: أصغت السمع، وحقَّ لها ذلك، فما قال سبحانه لشيء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره.

والأمر هو نتيجة لما يشاؤه اللَّهُ من حياة للناس على الأرض، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر متعددة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود، فهو سبحانه القائل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له: كُنْ فيكون، وإذا أراد منهجاً فهو يُنزله، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعة، فهو القائل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، وهكذا نفهم أن معنى هو. أي: إخراج المعدوم إلى حيِّز الوجود، سواء كان معدوماً جزئياً أو معدوماً كلياً، أو معدوماً أزلياً.

كل ذلك اسمه أمرٌ، ولحظة أن يأمر اللَّهُ فنحن نثق أن مأمورَ اللَّه يبرز، لذلك قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١، ٢].

أي: أنها لم تسمع الأمر فقط، بل نفَّذته فَوْرَ صدوره، دون أدنى ذرة من تخلُّف، فأمرُ اللَّه يُنفذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه، أما أمرُ البشر فهو عُرْضةٌ لأنْ يُطاع، وعُرْضةٌ لأنْ يُعْصَى.

حتى أمْر البعث ليس علاجاً لجزئيات كلِّ شخص وضَمّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة، بل المسألة منضبطةٌ تماماً مع الأمر الإلهي (كُنْ) وبمجرد صدوره ودون حاجة لوقت ومزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً، كلُّ واحد منتظرٌ دوره، منتظرٌ الإشارةَ.

فهو سبحانه فعَّالٌ لما يشاء، كما قال هنا في الحديث القدسي: (أفعل ما أريد).

ورسول اللَّه ﷺ يقول في هذا الحديث القدسي عن رب العزة سبحانه وتعالى: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كلَّ إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أُدخل البحر».

فالحق سبحانه وتعالى عنده من السعة ما يعطي الكلَّ، وسبحانه واسع عليم، فخزائنُ اللَّه ملأى لا تنفد، وسعة الحق مطلقة، فالحق سبحانه هو صاحب الخزائن التي لا تنفد.

وهو القائل سبحانه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: ٩٦].

فقدرته سبحانه تتسع لعطائنا جميعاً، دون أن ينقص شيءٌ من عنده، فهو يعطيك ويعطي الآخرين ولا ينقص مما عنده شيءٌ، فعطاؤه سبحانه لواحد لا يمنع أن يعطيَ الآخر.

لذلك لا يشعر المؤمنُ بحسد أو حقد في قلبه لإنسان أنعم اللَّهُ عليه، لأنه يعلم تماماً أن هذا لن ينقص من رزقه شيئاً، فبعضُ الناس ربما حسدوا غيرهم من الذين يعطيهم الأغنياء رغبةً في أن يكون ذلك لهم وحدهم، فإنك إنْ كان عندك كمٌّ من المال ثم اتصل بك قومٌ في حاجة فأعطيتهم منه، ربما قال الآخرون ممَّنْ يرغبون في عطائك ويأملون في خيرك: إنك ستنقص مما عندك بقدر ما تعطي هؤلاء، لأن ما عندك محدودٌ، ولكن هنا العطاء ممن لا ينفد ما عنده.

يقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٣].

فاللَّه واسعُ العطاء، بمعنى أنه قادرٌ على إعطاء الفضل لكل الخَلق، ولن ينقص ذلك من فضله شيئاً، ففضلُ اللَّه يؤتيه سبحانه وتعالى مَنْ يشاء، وتتسع قدرته لكلِّ مطلوب.

فعطاء اللَّه دائم لا ينقطع، لأن خزائنه لا تنفد ولا تنقص، فهو سبحانه يعطي العطاء الواسع.

الذينَ لا يشهدونَ الزُّور

عن علي رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه:

يقول اللَّه تعالى:

« اشتدَّ غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد ناصراً غيري»(١)

من صفات عباد اللَّه أنهم لا يشهدون الزُّور، وهي صفة لها شأن كبير عند اللَّه؛ لأنها ميزانٌ عادلٌ للمجتمع، ولأن بها يسود العدلُ بين الناس، وينتظم أمرُ الناس، ويعلم الضعيف والمظلوم أنه لن يضيع حقهما؛ لذلك كان من عباد اللَّه أولئك ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

والحق سبحانه قرن بين قَوْل الزُّور وعبادة الأوثان والشرك باللَّه، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

فقرنَ سبحانه عبادةَ الأوثان بقوْل الزُّور، كأنهما في الإثم سواء؛ لذلك سلَّم النبي ﷺ يوماً من صلاة الصبح، ثم وقف وقال: « ألَا وإن شهادةَ الزور جعلها اللَّهُ بعد الأوثان»(٢).

لماذا؟ لأن في شهادة الزور جماعاً لكل حيثيات الظلم، فساعةَ يقول: ليس للكون إلهٌ فهذه شهادة زور، وقائلها شاهدُ زور، وساعة يقول: الإله له

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الصغير (١/ ٣٠)، وذكره المنذري في الترغيب (٣/ ٣٢٨) ونسبه الطبراني في الصغير والأوسط ورمز له بالضعف.

(٢) عن خريم بن فاتك الأسدي رضي اللَّه عنه قال: « صلى رسول اللَّه ﷺ صلاة الصبح، فلما انصرف قائماً قال: عدلتْ شهادةُ الزور الإشراكَ بالله (قالها ثلاثاً)، ثم تلا هذه الآية: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٣٢١) وأبو داود في سننه (٣٥٩٩)، والترمذي في سننه (٢٣٠٠). قال الترمذي: هذا عندي أصحّ من حديث أيمن بن خريم»، وخُرَيْم بن فاتك له صحبة.

شريكٌ، فهذه شهادةُ زور، وقائلها شاهدُ زور، كذلك حين يظلم أو يُغيِّر في الحقيقة، أو يذم الآخرين، كلها داخلةٌ تحت شهادة الزور.

ولما عدَّد النبي ﷺ الكبائر، قال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول اللَّه. قال: الإشراك باللَّه وعقوق الوالدين ـ وكان مُتكئاً فجلس ـ فقال: ألا وقوْل الزور، ألَا وقول الزور، قال الراوي: فما زال يُكرِّرها حتى قلنا: ليته سكت، أو حتى ظننا أنه لا يسكت»(١).

ويقولون في شاهد الزور: يا شاهد الزور، أنت شرٌّ منظور، ضللتَ القضاةَ، وحلفتَ كاذباً باللَّه.

ومن العجيب في شاهد الزور أنه قبل أن يسقط من نظر الناس، يسقط أولاً من نظر مَنْ شهد لصالحه، فرغم أنه شهد لصالحك ورفع رأسك على خصمك، لكن داستْ قدمُك على كرامته وحقَّرته، ولو تعرَّض للشهادة في قضية أخرى، فأنت أولُ مَنْ تفضحه بأنه شهد زُوراً لصالحك.

فمَن يشهد الزور يسقط حتى في عين ذلك الذي شهد له، فإنْ جاء يشهد أمامه في قضية، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار، وكان يجب على كلِّ مَنْ يطلب من إنسان شهادةَ زور أنْ يضربه؛ لأنه يريد أن يسقط في نظر الناس، وفي نظر هذا الذي شهد من أجله؛ لأن شاهدَ الزور حين أعان إنساناً على خَصْمه، فالكلُّ ينظر إلى مثل هذا الشاهد بالاحتقار.

والزور هو الشيء الكذب، ويُزور في الشهادة أي: يثبت الحق لغير صاحبه، لكن نلاحظ أن الآية لم تَقُلْ: والذين لا يشهدون بالزور، مما يدل على أن للآية معنىً أوسع من النطق بقوْل الزُّور في مجال التقاضي، حيث تقول عند القاضي: فلانٌ فعل، وهو لم يفعل.

فللشهادة معنى آخر. أي: لا يحضرون الزور، والزور كلُّ ما خالف الحق، ومنه قوله تعالى في شهر رمضان: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

---

(١) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٥٩٧٦)، وكذا مسلم في صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان من حديث أبي بكرة.

فمعنى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: لا يحضرون الباطل في أيِّ لوْن من ألوانه، قوْلاً أو فعلاً أو إقراراً، وكل ما خالف الحق.

ومعلوم أن قوْل الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرّ بالمجتمع؛ لأنك حين تشهد بالزور تأخذ الحقَّ من صاحبه وتعطيه لغيره، وهذا يؤدي إلى تعطُّل حركة الحياة، وتجعل الإنسانَ لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه، فيُحجم الناسُ عن السعي والعمل، ما دامتْ المسألةُ زوراً في النهاية؟

لماذا؟ لأن شهادةَ الزور تهدم كلَّ قضايا الحقِّ في المجتمع.

والحق سبحانه يقول في كتابه: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

فلا يكفي أن يكون المؤمنُ قائماً بالقسط فقط، بل لا بدَّ أن تكون الشهادةُ للَّه والشاهد في العادة هو مَنْ يشهد لمصلحة واحد ضد آخر، وعندما يقرُّ الشاهدُ بذنب فهو قد شهد على نفسه.

والشاهد لمصلحة واحد إنما يفعل ذلك ليرجح الحكم، والشاهد على نفسه يُقرُّ بما فعل، والإقرار سيد الأدلة، وشهادة الشاهد تقدم للقاضي الدليلَ الذي يُرتب عليه الحكم، وهكذا يشهد المؤمنُ على نفسه.

وهناك معنىً آخر: أنه يشهد على نفسه، ولو كانت الشهادةُ تجرُّ وبالاً عليه، وهذه المعاني من معطيات الإشعاعات القرآنية، فالمؤمن يشهد على نفسه للإقرار، وقد لا تكون الشهادةُ على النفس، بل قد تكون الشهادةُ واجبةً عليه يُؤديها لمصلحة غيره، ولا يخاف فيها الشاهدُ من السلطان، وحتى وإنْ جارَ السلطان على المؤمن وأصابه بوبال في نفسه أو ماله.

ومن الناس مَنْ أصابه وبالٌ في نفسه أو أهله من السلطان لمجرد كلمة حق قيلتْ، فالسلطان قد لا يأخذ الإنسانَ فقط بذنبه، بل قد يأخذ أهلَ الإنسان بهذا الذنب. والحق سبحانه يوضح للعبد: لا تهتم بذلك ولا تقولنَّ: سيعذبون العيال، أو سيأخذون كل شيء، إنني أنا الموجود المتكفل بعبادي.

وحين يشهد الإنسانُ على نفسه فلن يكون أبوه أو أمه أو أحدُ أقاربه أعزَّ منه.

ثم يدخل بنا الحقُّ إلى أن العدالة تدخل فيها الأهواء، وحين يرجح إنسان الباطل غير الواقع على حق واقع، فالمرجح هو هوى النفس، ومنشأ الهوى أن يكون المشهودُ عليه غنياً، فيخافُ الإنسانُ أن يشهدَ عليه، فيمنعه من خير ما.

ولذلك حدد الحق قوامة المؤمنين بالقسط والشهادة للَّه، ولو على النفس أو الأب أو الأم أو الأقارب، ولا يصح أن يضع أحدٌ من المؤمنين ثراء أو فقر المشهود له أو عليه في البال، بل يجب أن يكون البالُ مع اللَّه فقط.

لذلك قال الحق سبحانه: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقد يقول القائل: إن الهوى قد ينحاز إلى الغني طمعاً في ثرائه، فلماذا يذكر اللَّهُ الفقير أيضاً؟ ونقول: قد ينحاز الهوى إلى الفقير رحمةً بالفقير، فيحدِّث الشاهد نفسه «أنه فقير ويستحق الرحمة»؛ لذلك يُحذِّرنا الحق من الانحياز إلى الغنيّ، أو إلى الفقير.

ولا دخلَ للشهادة بثراء الثريِّ أو بفقر الفقير، لأن العبدَ المؤمن ليس أَوْلَى أو أحقّ برعاية مصالح الناس من خالقهم ـ جلّ شأنه ـ ولذلك جاء بالحيثية الملجمة ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

أي: أنك أيها العبد لم تخلق أحداً منهما، ولكن اللَّه خالقُ الاثنين، وهو أَوْلَى بهما، فليس لك أن تقيمَ شهادتك على الثراء أو على الفقر؛ لأنك لستَ القيِّم على الوجود.

والذي يفسد ويُشوِّش على العدل هو الهوى، والمثل العربي يقول: «آفة الرأي الهوى». وإياكم أيها المؤمنون واتباع الهوى حتى لا تفسد قدرتكم على العدل، وتجنحوا بعيداً عنه. ﴿وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

الليُّ هو التحريف، أي: إنْ تلووا في الشهادة وتُحرِّفوها وتُغيِّروها فإن اللَّهَ بما تعملون خبيرٌ، أو: أنْ يُعرض الشخصُ عن أداء الشهادة لأنه يخاف من المشهود عليه؛ لذلك يُقال: إنه خائفٌ من المشهود عليه؛ لأن الشهادة ترجح حكم المشهود له؛ لهذا فهو يُعرض عن الشهادة، وإنْ جاء للشهادة فهو (يلفّ) الكلمات ويلوي لسانه بها.

والشهادة ـ كما نعلم ـ تُطلق على متلازمات متعددة، يجمعها كلها كلمة (الحضور)، كقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]، أي: أن نداء الحج يسمعه الناسُ، فيأتون من كل مكان وعلى كل وسائل النقل، وقد تكون صعبة حتى يشهدوا منافع لهم.

ونحن نرى الشاهد يقف أمام المحكمة، فتسأله النيابةُ فيقول ما رأى، ويسأله محامي الخصم فيقول ما رأى، ويسأله محامي الدفاع فيقول ما رأى، ومادام الشاهدُ صادقاً فلن يخشى محاورةَ أيِّ طرف يسأله، والأطراف التي تسأل الشاهدَ تطلب منه أن يأتيَ بالواقعة على أساليب مختلفة.

وما دامتْ الواقعةُ صادقةً تظل كما هي مهما تنوعتْ الأسئلةُ، وتغيَّرتْ الأساليب؛ لأن الشاهدَ الصادق يستوحي واقعاً لا يتغير، أما الشاهد الكاذب فيلف ويدور ويُغيِّر من أقواله، ولهذا نرى وكيل النيابة اللبق الحاذق يبحث في ذاكرة الشاهد عن أدقّ الخفايا.

وفي قصة سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ نرى كيف أوقع الحقّ بإخوة يوسف عندما أخذوا أخا يوسف الصغير معهم في الرحلة إلى مصر، وكيف دبر يوسف لهم أمراً ليحتجز أخاه معه، وكيف كان الصراعُ بين إخوة يوسف خوفاً على أبيهم بعد حجز الأخ الصغير.

فيقول لهم شقيقهم الأكبر كما أخبر القرآن الكريم: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ * وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [يوسف: ٨١، ٨٢].

ونعرف أن إخوةَ يوسف كذبوا في المرة الأولى عندما فعلوا فعلتهم الشنعاء ضد يوسف، لكنهم صدقوا في المرة الثانية التي احتُجز فيها شقيقُ

يوسف[١] ولذلك طلبوا أن يسأل والدهم: إما أهل القرية التي كانوا بها، وإما رفاقهم في القافلة.

لقد أخبروا أن أخاهم قد استُخرج من وعائه بعضٌ من أدوات الملك، وهو الصُّواع الذي كان يُكال به، ولهذا جاءتْ شهادتهم هذه المرة مطابقةً للواقع، وهو ما أخبروا به.

إذن: فالشهادة هي الفيصل في التنازع؛ ولذلك يوصي النبيُّ ﷺ ألَّا يشهد الرجلُ على أمر إلا بعد أنْ يكونَ قد رآه رَأيَ العين، كما يرى الشمس:

«على مثلها فاشهد أو دع»[٢].

وهكذا نعلم أن الشهادة كلها تدور حول الحضور والشهود؛ ولهذا تأتي الشهادةُ في لوازم متعددة، فهي مرة تعني الحضور، وهي مرة تأتي بمعنى الحكم، وثالثة بمعنى الإقرار، وكلها معان ملتقية.

والشهادة تتطلب أمرين: الأول هو حضور الشاهد لحظةَ وقوع المشهود به، والثاني: هو أمانةُ النقل. ولذلك جعل اللَّه في بعض الأحكام شهادةَ اثنتين من النساء تعدل شهادةَ رجل واحد.

وقد يقول قائل: كيف يساوي الإسلامُ بين شهادة رجل جاهل، أو أميٍّ وشهادة امرأتين قد تكون كلٌّ منهما على درجة عالية من الثقافة والعلم؟

ونقول: إن المسألةَ في الشهادة ليست عملَ عقل، ولكنها أمانةُ نقل، وأمانةُ النقل لا شأنَ لها بالثقافة، فالشهادة تحتاج إلى حضور الحادثة، ثم إن المرأةَ يكون دائماً أمرُها مبنياً على الستر وعدم التهجُّم على الرجال، فقد تقع حادثةٌ وتوجد امرأةٌ بجانب هذه الحادثة.

وبطبيعة الحال لن تتجاسر وتتقدم وتسأل لمعرفة كلِّ التفاصيل، على العكس من الرجل الذي يرى الحادثة، فيحاول أن يعرف كل ما جرى، وحين

---

(١) شقيق يوسف هو بنيامين، وهو أخوه لأبيه يعقوب وأمه راحيل، أما باقي إخوته والذين فعلوا فيه ما فعلوا فكانوا إخوته لأبيه فقط، فأمهم أخت راحيل الكبرى.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٩٣)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٩٨) بلفظ: (يا بن عباس لا تشهد إلا على ما يضيء لك كضياء هذا الشمس) وأومأ رسول اللَّه بيده إلى الشمس. وصححه الحاكم ولكن وهَّاه الذهبي.

أراد الحقُّ الشهادةَ من امرأتين، لم يطلب ذلك لضعف الثقة في المرأة أو زيادة الثقة في الرجل، ولكن لأن الشهادةَ ليست ابتكارَ عقل، ولكنها حضورُ مشهد وأمانةُ نقل.

فعباد اللَّه يخافون اللَّه ويخشونه، أنْ يقولوا أو يشهدوا زوراً، بل إن ألسنتهم لا تنطقُ إلا حقاً، فيتهيَّبون أنْ يقفوا موقفاً يكونون فيه سبباً لظلم أحد بشهادة زور أو قوْل باطل.

وسيرة نبي اللَّه ﷺ مع زوجاته تعطينا مثالاً حياً على الورع والتقوى، ففي موقف من أصعب المواقف التي مرَّت على الرسول ﷺ، وهو تلك الفرْية التي افتراها المنافقون على زوج نبي اللَّه (عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق، ورميها بالفاحشة مع صفوان بن المعطل الذي قال عنه النبي ﷺ: لقد ذكروا رجلاً ما علمتُ عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي.

وقد سأل نبي اللَّه ﷺ زوجته زينبَ شهادتها فقال: ما علمت؟ وما رأيت؟ فقالت زينب رضي اللَّه عنها: يا رسول اللَّه، أحمي سمعي وبصري، واللَّه ما علمتُ إلا خيراً.

أي: أصون سمعي وبصري من أن أقولَ سمعتُ ولم أسمع، وأبصرتُ ولم أبصر. ولم تدفعها الغيرة وما كان يقع بينها وبين عائشة إلى الافتراء عليها، بل قالت: واللَّه ما علمتُ إلا خيراً.

لذلك قالت عائشة رضي اللَّه عنها: عصمها اللَّهُ بالورع، وهي التي كانت تفاخرني وتُضاهيني بجمالها ومكانها عند النبي.

وهذا هو حال عباد اللَّه أنْ يحموا أسماعهم وأبصارهم أنْ يقولوا: سمعنا وهم لم يسمعوا، وأبصرنا وهم لم يبصروا.

والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فاللَّه عزَّ وجلَّ يتحدث هنا عن المسؤولية مسؤولية كلِّ إنسان عن سمعه وبصره، والمسؤولية أمام اللَّه فردية لا يُسأل أحدٌ عن أحد، بل يُسأل عن نفسه

فحسبْ، فناسب ذلك أنْ يقولَ: السمع والبصر. لأنه سيُسأل عن بصر واحد هو بصره.

فالإنسان ـ إذن ـ مسؤولٌ عن سمعه وبصره وفؤاده من حيث التلقِّي، تلقِّي القضايا العلمية التي سنسيرُ عليها في حركة حياتنا، وكذلك من حيث الإعطاء، فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول للأذن: لا تسمعي إلا خيراً، ولا تتلقي إلا طيباً، ويا مُربِّي النشء لا تُسْمعه إلا ما يدعو إلى فضيلة، ولا تُعط لأذنه إلا ما يُصلح حياته ويُثريها.

ويقول للعين: لا ترَيْ إلا الحلال الذي لا يهيج غرائزك إلى الشهوات، ويا مُربِّي النشء احجب عنه ما يثير الغرائزَ ويفسد الحياةَ، وبذلك نُربِّي في المجتمع المعلومات الصحيحة التي تنبني عليها حركةُ حياته.

وما دُمتَ مسؤولاً عن أعضائك هذه المسؤوليةَ ومُحاسباً عنها، فإياك أنْ تقولَ: سمعت وأنت لم تسمع. وإياك أنْ تقول: رأيت وأنت لم ترَ. إياك أن تتعرض لشهادة تُدلي فيها بغير ما تعلم وتتيقن، أو تتبنى قضية خاطئة وتبني عليها حركة حياتك، لأن المبنيّ على مقدمات فاسدة ينتج عنه نتائج فاسدة، وما بُنيَ على مقدمات صحيحة أنتج النتيجةَ الصحيحة.

وتتأكد هذه المسؤولية عندما يستمع الإنسانُ لقول اللَّه عز وجل: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

إنه قولٌ ومشهدٌ يضع العبدَ في مواجهة أعضائه التي كانت طيِّعةً له في الدنيا لا تخالف أمره، فإذا بها هي التي تنطقُ وتتكلمُ شاهدةً عليه.

فالجوارح التي كانت مُطيعةً له في الدنيا وجعل لها سيطرةً على جوارحه وجعلها خاضعةً لإرادته، لا تعصيه في خير أو شرٍّ، فبيده يضربُ ويعتدي، وبيده يُنفق ويقيل عثرةَ المحتاج، وبرجله يسعى إلى بيت اللَّه أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد.

وجوارحه في كلِّ هذا مُسخَّرة طائعةٌ لا تتأبَّى عليه، حتى وإن كانت كارهةً للفعل، لأنها منقادةٌ لمراداتك ففعلها لك ليس دليلاً على الرضا عنك، لأنه قد يكون رضى انقياد.

وقد ضربنا مثلاً لذلك بقائد السرية، فأمره نافذٌ على جنوده حتى وإن كان خطأً، فإذا ما فقد هذا القائدُ السيطرةَ وأصبح الجنودُ أمام القائد الأعلى باحوا له بكل شيء.

كذلك في الدنيا جعل اللَّهُ للإنسان إرادةً على جوارحه فلا تتخلف عنه أبداً، لكنها قد تفعل وهي كارهةٌ وهي لاعنةٌ له، وهي مبغضةٌ له ولفعله، فإذا كان يوم القيامة وانحلَّتْ من إرادته وخرجتْ من سجن سيطرته شهدتْ عليه بما كان منه.

ويُحدِّثنا الحقُّ سبحانه عن الذين خرجوا عن منهج اللَّه وسخَّروا أعضاءهم في معصية اللَّه، فيقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانِا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ * وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ * مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ * وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ * وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى ۖ قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ * لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ ۖ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ * أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ١٩ - ٥٤].

فكأن جوارحَ الإنسان تقول له يوم القيامة: لقد أتعبتني في الدنيا، وأكرهتني على فعل أشياء لم أكُنْ لأفعلها لأنني عابدةٌ مُسبِّحةٌ للَّه، وإن ما أمرتني به يخرج عن طاعة اللَّه عز وجل.

فأبعاضُ الجسم تشهد عليه عند خالقها يوم القيامة، فإن كنتَ عابداً مُسبِّحاً كانت جوارحك معك، وإن كنتَ غير ذلك كانت جوارحك ضدك.

فالجوارح تنطق لتقيمَ الحجةَ على المذنبين، وسؤال المذنبين عن كيفية وقوع النطق لا لزومَ له، لأن الجوارحَ كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم، فاليد هي التي امتدتْ لتسرق، واللسان هو الذي نطق قَوْلَ الزور، والقلب هو الذي حقد، والساق هي التي مشتْ إلى المعصية.

فالجوارحُ تقول يوم القيامة لأصحابها: كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغماً عنا، لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا، فقلنا ما أجبرتمونا على فعله.

والحق سبحانه يشدِّد على أهمية الصدق، فيقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

فالصدق هو الخُلَّة التي تجمع كل الإيمان، فحين سُئل رسول اللَّه ﷺ: أيكون المؤمن جباناً؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمنُ بخيلاً؟ قال: نعم، فقيل له: أيكون المؤمنُ كذاباً؟ فقال: لا.

والحديث يوضح لنا فظاعةَ الكذب وشناعته، وكيف أنه أعظمُ من كلِّ هذه المنكرات، فقد جعل اللَّهُ لكل منها عقوبةً معلومة في حين ترك عقوبة الكذب ليدلَّ على أنها جريمةٌ أعلى من العقوبة وأعظم.

إذن: الكذب صفةٌ لا تليق بالمؤمن ولا تُتصوَّر في حقه.

والحق سبحانه يضع الشهادةَ مكانةً عاليةً في منهج اللَّه لتسيير حياة البشر، لذلك وضع لها مبادئ في آية الدَّيْن، فقال تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهو زيادة في التوثيق، يريد به سبحانه أن يُؤمِّنَ الحياة الاقتصادية عند غير الواجد، لأن الحاجة عندما تكون مُؤمَّنةً عند غير الواجد فالدولاب يمشي وتسير حركةُ الحياة الاقتصادية.

ولماذا قال الحق: (شهيدين) ولم يقل: شاهدين؟ لأن مطلق شاهد قد يكون زوراً، لذلك جاء الحق بصيغة المبالغة، كأنه شاهدٌ عرفه الناسُ بعدالة الشهادة حتى صار شهيداً، إنه إنسانٌ تكررتْ منه الشهادةُ العادلة، واستأمنه الناسُ على ذلك، وهذا دليلٌ على أنه شهيد.

فالعدالة أساسٌ في عملية الشهادة، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وثاني مبادئ الشهادة في منهج اللَّه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وفي الشهادة مرحلتان: مرحلة التحمُّل، ومرحلة أدائها. فعندما نطلب من أحد الناس قائلين: تعالَ اشهد على هذا الدَّيْن مثلاً فليس له أن يمتنع، وهذا هو التحمُّل، وكذلك عند طلبه لأداء الشهادة أمام القاضي، فليس للشهداء أنْ يأبوا إذا ما دُعُوا تحمُّلاً أو أداءً.

ولكن لا ينبغي أن تتعطل مصالحه لأجل أنه عادلٌ ولأنه شهيدٌ، وهنا يأتي المبدأ الثالث فيقول تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فالشهادة هنا تتطلب أن نحترمَ ظروف الشهادة، فإنْ كان عند الشاهد عملٌ أو امتحانٌ أو صفقةٌ أو غير ذلك، فَلنَا أن نقول للشاهد: لك أنْ تتعيَّنَ في التحمُّل حيث لا يوجد مَنْ يُوثَق به ويُطمأنُ إليه، أما في الأداء فأنت مضطرٌ.

لذلك علينا أن نبحثَ عن شاهد له قدرةُ السيطرة على عمله بدرجة ما. وإن لم نجد غيره فماذا يكون الموقف؟

لقد قال الحق: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، إذن: علينا أن نبحثَ له عن جُعْل يُعوِّض عليه ما فاته، فلا نلزمه أن يعطل عمله وإلا كانت عدالته وبالاً عليه، لأن كل إنسان يُطلب للشهادة تتعطل أعماله ومصالحه، واللَّه لا يحمي الدائن والمدين ليضرَّ الكاتب أو الشهيد.

فالحق سبحانه يريد أن يضمن لذلك الكاتب أو الشهيد ما يُبقي على مصلحته، ومن هذا المبدأ القرآني أخذت القوانين الوضعية عند استدعاء شاهد من مكان ليشهدَ في قضية فإنها تقوم له بالنفقة ذهاباً وبالنفقة إياباً، وإن اقتضى الأمر أن يبيتَ فله حقُّ المبيت وذلك حتى لا يُضار، وهو يؤدي الشهادة، وحتى لا يتعطل الشاهدُ عن عمله أو أن يصرفَ من جيبه.

ويريد الحق سبحانه أيضاً أن يضمنَ مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة، لذلك اعتبر الإضرار بالشاهد فُسوقاً، فقال تعالى: ﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

إنه سبحانه يحذر أن يقع الضرر من الكاتب أو الشهيد، أو أن يقع الضرر على الكاتب أو الشهيد، ففعل الضرر فسوق، أي: خروج عن الطاعة.

ويُحذِّرنا الحق سبحانه من كتم الشهادة، فيقول: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فكلمة الشهادة هي عن أمر مشهود واقع، ومادام الأمرُ مشهوداً وواقعاً فإنه

يُلحُّ على نفس مَنْ يراه أن يخرج، فإياك أن تكتبه بالكتم، وكأن الطبيعةَ الإيمانية الفطرية تُلح على صاحبها لتُنطقه بما كان مشهوداً له لأنه واقع.

والواقع لا يتغيَّر أبداً، لذلك فالإنسانُ الذي يحكي لك حكاية صدق لا يختلف قوله في هذه الحكاية، حتى وإنْ رواها ألفَ مرة، لأنه يستوحي واقعاً، أما الكاذب في شهادته صاحب شهادة الزُّور فيستوحي غيرَ واقع، فتجده يقول كلمة ثم ينسى أنه كذب من قبل فيكذب كذبةً أخرى، فينكشف أمره ويسقط في نظر الناس ونظر مَنْ شهد له.

المرور باللغو مرور الكرام

مما ذكره رسول الله في حديثه النبوي:

«إذا سألتم اللَّهَ فاسألوه الفردوسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسطُ الجنة»[1]

وما يستحق هذه الدرجة في الجنة إلا الذين تخلقوا بخلق ترك اللغو، والمرور عليه مرور الكرام.

يقول الحق سبحانه واصفاً عباده بصفة تنُمُّ عن مدى حكمتهم وعلمهم بعواقب الأشياء، مما يجعلهم لا يدخلون في جدال أو مراء أو مخاصمة، فيقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

واللغو هو الكلام الذي يجب في عُرْف العاقل أنْ يُلغى ويُترك، فهو الهراء الذي لا فائدة منه، فلا ينفعك إنْ سمعته، ولا يضرك عدم سماعه، ويُطلق أيضاً على كل فعل لا جدوى منه.

لذلك جعل الحق سبحانه المَارِّينَ على اللغو مرورَ الكرام أصحاب نفوس سَويَّة مُتعالين على سفاسف الأمور، مُترفِّعين عن سفاهات الناس، وهم لا يمرون أيَّ مرور، بل (مروا كراماً).

والكرام يقابلها اللئام، فكأن المعنى: أنهم لا يدخلون مع اللئام مجال اللغو والكلام الباطل الذي يصادم الحق ليصرف الناس عنه، فلا ينشغلون به ولا يأبهون له.

بل إن الحق سبحانه قضى وحكم بفلاح المؤمنين، وجعل منهم هؤلاء الذين يعرضون عن الكلام الذي لا فائدةَ منه، فيعرضون عن اللغو، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣].

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٣/ ٧٤).

ثم قال عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

والإعراض في الأصل تجنُّب الشيء، وهو صورة لحركة إباء النفس لشيء ما، وأهل المعرفة يضعون للغو مقياساً، فيقولون: كل عمل لا تنال عليه ثواباً من اللَّه فهو لغو.

لذلك احرص دائماً أن تكون حركتك كلها للَّه حتى تُثاب عليها، كصاحبنا الذي دخل عليه رجل وقصده في قضاء أمر من الأمور وهو لا يملك هذا الأمر، لكن أراد أن يستغل فرصة الخير هذه، وأن يكون له ثواب حتى في حركة الامتناع عنه. فرفع يده: اللَّهم إنه عبد قصد عبداً وأنا آخذ بيده وأقصد رباً، فاجعل تصويب خطئه في قصدي تصويباً لقصدك. يعني: أنا وإنْ كنتُ لا أقدر على قضائها إلا أنني أدخل بها على اللَّه من هذه الناحية.

وقد قال الحق سبحانه في سورة القصص: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

وسبب نزول هذه الآية أنه لما استقبل رسول اللَّه ﷺ رسلَ النجاشي وكانوا جماعة من القساوسة، فلما جلسوا أسمعهم سورة يس، فتأثروا بها حتى بَكوْا جميعاً، ثم آمنوا برسول اللَّه، ولمَّا انصرفوا تعرَّض لهم أبو جهل ونهرهم. وقال: خيَّبكم اللَّهُ من رَكْب - وهم الجماعة يأتون في مهمة - أرسلكم من خلفي. يعني: النجاشي لتعلموا له أخبارَ الرجل، فسمعتموه فبكيتُم وأسلمتم، واللَّه ما رأينا رَكباً أحمقَ منكم، فما كان منهم إلا أن أعرضوا عنه[1].

فهؤلاء مرُّوا باللغو مرورَ الكرام وأعرضوا عنه فلم يلتفتوا إليه، وزادوا على ذلك أنهم لم يسكتوا على اللغو، إنما قالوا: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

---

(١) قاله سعيد بن جبير فيما أورده عنه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٣٩٣). وقاله عروة بن الزبير فيما نقله القرطبي في تفسيره (٧/ ٥١٨٣)، وعزا ابن كثير القصة لمحمد بن إسحاق في السيرة.

أي: لنا أعمالنا الخيِّرة التي يجب أن نقبل عليها، ولكم أعمالكم الباطلة التي ينبغي أن تترك، فكلٌّ منا له شأنٌ يشغله.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾، والسلام إما سلامُ تحية كما هو شائعٌ بيننا، وإما سلامٌ للمتاركة كما لو دخلتَ مع صاحبك في جدل، فلما رأيت أنه سيطول وربما تعدَّيت عليه فتقول له تاركاً، سلام عليكم. تعنى: إنني ليس لديَّ ما أقوله لمفارقتك إلا هذه الكلمة.

ومن ذلك ما دار بين الخليل إبراهيم عليه السلام وبين عمه، فبعد أن ناقشه في أمر عبادته آلهةً من دون اللَّه، قائلاً له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا * يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا * يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٢ ـ ٤٥].

فهذه المحاورة التي احتوتْ أربعةَ نداءات حانية، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى اللَّه بالحكمة والموعظة الحسنة فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعو ولده ويقدم له النُصح ورتبتْ الأمورَ ترتيباً طبيعياً، وسلسلتها تسلسلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه.

وقد راعى الحق تبارك وتعالى جوانبَ النفس البشرية، فأمر أن تكون الدعوةُ إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى لا تجمع على المدعوّ قسوة الدعوة، وقسوة أن يترك ما ألف ويخرج منه إلى ما لم يألف.

فأنت حين تدعو شخصاً إلى اللَّه، فإنما تُخرجه عن الفساد الذي ألفه، وهو لم يألف الفساد إلا بعد أن اشتهاه أولاً، ثم اعتاده بالفعل والممارسة ثانياً، وهاتان مصيبتان آخذتان بزمامه، فما أحوجه لأسلوب ليِّن يستميل مشاعره ويعطفه نحوك فيستجيب لك.

وما أشبه الداعية في هذا الموقف بالذي يحتال ليخلِّص الثوبَ الحرير من الأشواك، أما إنْ نهرته وقسوتَ عليه فسوف يُعرض عنك وينصرف عن دعوتك، ويظل على ما هو عليه من الفساد.

لذلك قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ويقولون: النصح ثقيلٌ فلا تُرسله جبلاً، ولا تجعله جدلاً، وقالوا: الحقائق مُرّة فاستعيروا لها خفةَ البيان.

ورغم نداءات إبراهيم عليه السلام الحانية لأبيه، إلا أن ردَّ أبيه كان صادماً: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦].

تهديد ووعيد وطَرد لإبراهيم، فماذا قال نبيُّ اللَّه إبراهيم لأبيه بعد هذه القسوة؟ لم يخرج إبراهيمُ عن سَمْته العادل، ولم يتعدَّ أدب الحوار والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧].

أي: سلامٌ أقابل به ما بدر منك، فأمري معك سلام، فلن أقابلك بمثل ما قلت، ولن أغلظ لك، ولن ينالك مني أذىً، ولن أقول لك: أف.

لكن السلام مني أنا لا يكفي، فلا بدَّ أن يكون لك سلامٌ أيضاً من اللَّه تعالى لأنك وقعتَ في أمر خطير لا يُغفر ويستوجب العذاب، وأخشى ألَّا يكون لك سلامٌ من اللَّه.

ظلَّ إبراهيم عليه السلام يستغفر لأبيه كما وعده، إلى أن تبينَ له أنه عدو للَّه فانصرف عند ذلك وتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤].

فما كان من إبراهيم إلا أنه أعرض عن الحديث معه بعدما بذل معه كل ما يمكن، وبعد أنْ تبين أن دعوته لن تُجدي نفعاً، لأن أباه أُشرب قلبه حبَّ آلهته التي يصنعها بيديه، فقال إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨].

ويعطينا الحقُّ سبحانه صورة أخرى للإعراض عن اللغو والاستهزاء بآيات اللَّه، فيقول تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

يأمر الحق المؤمنين أنهم إذا سمعوا بعضاً من الكافرين يهزأ بآيات اللَّه أو يكفر بها فلا يقعدوا معهم، إلا أنْ يتحولوا إلى حديث آخر، وذلك حتى لا

يكونوا مثل الكافرين لأنه سبحانه سيجمع المنافقين والكافرين في جهنم، وبذلك يحمي اللَّهُ وحدة أهل الإيمان ويصونهم من أيِّ تهجُّم عليهم.

فالذين يَغارون على الإيمان هم الذين آمنوا، فما دُمتَ قد آمنتَ وارتضيتَ لنفسك الإسلام فإياك أن تهادن من يتهجم على الدين، لأنك إنْ هادنته كان أعزَّ في نفسك من الإيمان.

وما دُمْتَ أيها المؤمن قد ارتضيتَ الإيمان طريقاً لك وعقيدة، فَلتحم هذا الإيمان من أن يتهجَّم عليه أحدٌ، فإن اجترأ أحدٌ على الإيمان بشيء من النقد أو السخرية أو الرمي بالباطل، فالغيرة الإيمانية للمسلم تُحتِّم عليه أن يرفضَ هذا المجلس.

وكان المؤمنون في البداية قلة مستضعفة لا تستطيع الوقوف في وجه الكافرين أو المنافقين، فساعةَ يترك المؤمنون الكافرين أو المنافقين لحظة اللغو في آيات اللَّه، فسيعلم الكافرون والمنافقون بذلك السلوك أن عرْضَ الإيمان أعزُّ على المسلمين من مجالسة هؤلاء.

أما إذا جالسهم مسلمٌ وهم يخوضون في الإيمان، فهذا يعني أنهم أعزُّ من الإيمان، والكافرون قد يجعلونها حديثاً مستمراً لزعزعة الإيمان في قلوب المسلمين، أما حين يرى الكافرُ مؤمناً يهبُّ وينفر من أيِّ حديث فيه سخرية من الإسلام، هنا يعرف الكافرُ أن إيمانَ المسلم عزيزٌ عليه.

فإن رأيتَ أيها المسلم فعلاً يُشجِّع منهجَ الفساد في الأرض فاعلم أن ذلك خوضٌ في دين اللَّه بالباطل، وقول الحق سبحانه: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ . . .﴾ [النساء: ١٤٠]، هو إيذانٌ بالمقاطعة، فلو أن إنساناً بهذا الشكل يذهب إلى البقال ليشتريَ منه شيئاً ليأكله فيرفض البيع له، وكذلك الجزار، وكذلك أيّ إنسان في يده مصلحة لمثل هذا الخارج عن المنهج.

وبذلك تكون المقاطعةُ حتى يتأدبَ ويعلم كلُّ إنسان أن المجتمعَ غيورٌ على دينه الذي آمن به، وأن اللَّه أعزُّ من كل تكريم يرونه في مجتمعهم.

وما استشرى الباطل وتبجَّح أهلُ الفساد وأهلُ المنكر، إلا لأن الناس يحترمونهم ويعاملونهم على هذه الحال، بل ربما زاد احترام الناس لهم خوفاً من باطلهم ومن ظلمهم.

وما خُلُق الإعراض عن اللغو والباطل والمرور عليه مرورَ الكرام الذي يتصف به عباد اللَّه إلا لأنهم قد تحققوا بمعنى قول الحق سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [الرعد: ١٧].

فالباطل قد يطفو ويعلو إلا أنه لا يدوم بل ينتهي، والمثل العامي يقول: «يفور ويغور»، ألم تَرَ إلى القدْر بها لحمٌ تفور؟ إننا نجد الرِّيم قد طفا على السطح، فإذا ما جاءتْ حرارةُ النار أخرجتْه على السطح، فإما أنْ يُخرجه الإنسانُ خارج القدر، وإما أنْ يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهي.

ومهما اختلطتْ بالحق أشياء فهو كحق يبعد ويطرد هذه الفقاقيع والخبث ويُنحيها عنه، فإنْ عَلا الباطلُ يوماً على الحق فلنعلم أنه علوُّ الزَّبَد الذي يذهب جُفاء مَرْمياً به ومطروحاً وسيظل الحقُّ هو الحق.

فالحق يبقى صافياً ثابتاً، أما الباطل فيعلو ليتجمَّع على الجوانب ليذهبَ بغير فائدة، فالباطلُ إنما يطفو على السطح، لكنه لا يفيد ولا يزعزع الحق الذي يستقر وينفع الأرض والناس.

وقد كان كفارُ قريش يحاولون التشويشَ على الحق الذي أنزله اللَّه سبحانه على رسوله محمد ﷺ، يريدون صرفَ الناس عن الاستماع للقرآن، فكانوا يقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

يعني: شوِّشوا عليه حتى لا يتمكَّن الناسُ من سماعه، وهذه شهادةٌ منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعتْ القرآن فلا بدَّ أنْ ينفعلوا به وأنْ يؤمنوا به، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر في النفوس ما قالوا هذه المقولة.

فالقرآنُ يخاطب ملكات خفية في النفس لا نعرفها نحن، ولكن يعرفها اللَّه سبحانه خالق الإنسان وهو أعلمُ به، هذه الملكات تنفعل حين تسمع القرآن فتلين القلوب ويدخل الإيمانُ إليها.

لذلك كان أئمةُ الكفر يخافون أكثرَ ما يخافون من سماع الكفار للقرآن، ويحاولون منعَ ذلك بأيِّ وسيلة، ويعتدون على مَنْ يتلو القرآن، ولو أن هذا

القرآن لم يكُنْ كلامَ اللَّه الذي وضع فيه من الأسرار ما يخاطب ملكات خفية في النفس البشرية ما اهتمَّ أئمةُ الكفر أن يستمع أحدٌ للقرآن أو لا يستمع، ولكن شعورهم بما يفعله كلامُ اللَّه جعلهم لا يمنعون سماعَ القرآن فقط، بل قالوا كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، فلم يكونوا يمنعونهم من سماع القرآن فقط، بل يطلبون من أنصارهم أنْ يلغوا فيه أي يُشوشون عليه، أي: اصنعوا ضجة تَحُول بين السامع للقرآن وتدبّره، ولا تعطوا للناس فرصةً لسماعه، حتى لا ينفذ إلى قلوبهم.

ويقول الحق سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٢].

فهؤلاء الذين يحاربون الحق ويقفون في وجه الدعوة إلى الإيمان مستفيدون من الباطل والضلال، ويسوؤهم أنْ يأتمَّ الناسُ بأهل الحقِّ والخير لذلك يبذلون قصارى جهدهم في نَشْر الضلال حتى أنهم يشترونه، فيبذلون مالهم لشغل الناس وصرفهم عن الحق باللهو واللعب واللغو.

فاللهو هو الشيء الذي لا مصلحةَ فيه ويشغلك عن مطلوب منك، لكن ما اللهو الذي اشتروْه ليصرفوا الناسَ به عن الحق وعن دعوة الإسلام؟ إنهم لمَّا سمعوا القرآنَ سمعوا فيه قصصاً عن عاد وثمود وعن مَدْين وفرعون.. الخ، فأرادوا أنْ يشغلوا الناسَ بمثل هذه القصص.

وقد ذهب واحدٌ منهم وهو النضر بن الحارث إلى بلاد فارس وجاءهم من هناك بقصص مسلية عن رستم وعن الأكاسرة وعن ملوك حمير، اشتراها وجاء بها، وجعل له مجلساً يجتمع الناسُ فيه ليقصَّها عليهم، ويصرفهم بسماعها عن سماع منطق الحق في رسول اللَّه.

وآخر يقول: بل جاء أحدُهم بمغنية تُغنِّيهم أغاني ماجنة مُتكسِّرة.

فالغناءُ أحد وسائلهم، وهو من التصرفات التي تُعدُّ لهواً وإنْ لم يشغلك عن شيء، وللعلماء فيه كلامٌ كثير، خاصة بعد أنْ صاحبته الموسيقى وآلاتُ الطرب والحركات الخليعة الماجنة.

فقد أباح علماؤنا الأُنْسَ بالغناء في الأفراح وفي الأعياد اعتماداً على قول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق الذي رأى جاريتين تُغنِّيان في بيت رسول اللَّه فنهرهما، وقال: أمزمار الشيطان في بيت رسول اللَّه. فقال: دَعُهما فإننا في يوم عيد.

وكذلك أباحوا الأناشيدَ التي تُقال لتلهبَ حماسَ الجنود في الحروب، أو التي ينشدها العمالُ ليطربوا أنفسهم وينشغلوا بها عن متاعب العمل أو المرأة التي تهدهد ولدها لينام.

ومن ذلك حداء الإبل (أي: تسوق الإبل والغناء لها) لتسرعَ في سيرها وقد قال النبي ﷺ لأنجشة: «رفقاً بالقوارير»، فشبَّه النساء في لُطفهن ورقتهنَّ بالقوارير، فإذا ما أسرعتْ بهنَّ الإبل هزّت بهنَّ الهوادج، وهذا يشقّ على النساء.

إذن: لا مانعَ من كل نَصٍّ له غرضٌ نبيلٌ، أما إنْ أهاج الغرائزَ فهو حرام ـ والكلام هنا عن مجرد النص ـ لأن الخالقَ سبحانه يعلم طبيعةَ الغرائز في البشر، لذلك نُسمِّيها غريزة، لأن لها عملاً وتفاعلاً في نفسك بدون أيّ مؤثرات خارجية، ولها طاقة لا بدَّ أنْ تتحرك، فإنْ أثرتها أنت ثارت ونزعتْ إلى ما لا تُحمد عُقْباه.

إذن: لا تقُلْ الغناء لكن قُل النصَّ نفسه، إنْ حَثَّ على فضيلة فهو حلالٌ، وإنْ أهاجَ الغرائزَ فهو حرامٌ وباطلٌ، كالذي يُشبِّب بالمرأة ويذكر مفاتنها، فهذا حرامٌ حتى في غير الغناء، فإذا ما أضفتَ إليه الموسيقى والألحان والتكسُّر والميوعة ازدادت حُرمته وتضاعف إثمه.

أما ما نراه الآن وما نسمعه يُسمونه غناء، وما يصاحبه من حركات ورقصات وخلاعات وموسيقى صاخبة فلا شكَّ في حرمته.

فكلُّ ما يُخرج الإنسانَ عن وقاره ورزانته، وكلُّ ما يجرح المشاعر المُهذَّبة فهو حرام، ثم إن الغناءَ صوتٌ فإنْ خرج عن الصوت إلى أداء آخر مُهيج تستعمل فيه الأيدي والأرجل والعينان والوسط.. الخ، فهذا كله باطلٌ ومُحرَّم.

ولا ينبغي للمؤمن الذي يملك زمامَ نفسه أنْ يقولَ: إنهم يفرضون علينا ذلك، فالمؤمنُ له بصيرةٌ يهتدي بها، ويُميِّز بين الغَثِّ والسمين والحق والباطل، فكُنْ أنت حَكَماً على ما ترى وما تسمع، بل ما يرى وما يسمع أهلُك وأولادك، وبيدك أنت الزمامُ إنْ شئتَ سمعت، وإنْ شئتَ أغلقتَ الجهاز، فلا حُجةَ لك لأن أحداً لا يستطيع أنْ يُجبرك على سماع أو رؤية ما تكره.

ففي رمضان مثلاً، وهو شهر للعبادة نصوم يومه ونقوم ليله، وينبغي أنْ نُكرمه، ونحتفظ فيه بالوقار والرُّوحانية، ومع ذلك يخرجون علينا بألوان اللهو واللغو الذي يتنافى والصيام.

فإنْ سألتَهم قالوا: الناسُ مختلفو الأمزجة، وواجبنا أن نوفر لهم أمزجتهم، لكن للمؤمن ولايةٌ على نفسه وهو يملك زمامها، فلا داعيَ أن تتهم أحداً ما دام الأمرُ في يدك، وعليك أنْ تنفذ الولايةَ التي ولَّاك اللَّهُ، فإنْ فعلتَ ففي يدك خمسةٌ وتسعون بالمائة من حركة الحياة، ولغيرك الخمسةُ الباقية.

إذن: القضيةُ واضحة لا تحتاج منا إلى فلسفة حول حكم الغناء أو الموسيقى، فكلُّ ما يثير الغرائزَ ويُخرجك عن سَمْت الاعتدال والوقار فهو باطلٌ وحرامٌ، سواء أكان نصاً بلا لحن، أو لحناً بدون أداء، أو أداءً مصحوباً بما لا دخلَ له بالغناء.

هؤلاء المُعرضون عن اللغو والكلام الباطل جعلهم الحقُّ سبحانه من الوارثين الذين يرثون الفردوسَ الذين قال الحق سبحانه فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

فحين يدخل أهلُ الجنة الجنةَ يتركون أماكنهم في النار، وحين يدخل أهلُ النار النارَ يتركون أماكنهم في الجنة، فيرث أهلُ النار الأماكنَ الشاغرة فيها، ويرث أهلُ الجنة الأماكنَ الشاغرةَ فيها.

والفردوسُ أعلى مكان في الجنة، لذلك كان النبي ﷺ يقول: «إذا سألتم اللَّهَ فاسألوه الفردوسَ، فإنه أعلى الجنة وأوسطُ الجنة»، ذلك لأن الفردوسَ جنةٌ على أعلى ربوة في الجنة. يعني: في مكان مُميّز منها، والعلو في مسألة

المسكن والجنان أمرٌ محبوبٌ في الدنيا، والناس يُحبون السكنى في الأماكن العالية، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء.

وفي الفردوس ميزةٌ أخرى، هي أن الحق سبحانه وتعالى هو الذي غرس شجرها بيده، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تبارك وتعالى، فقال: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: ٧٥].

ويُرْوى أن الحقَّ تبارك وتعالى لمَّا خلق الفردوسَ وغرس أشجارها بيده قال للفردوس: تكلمي. فلما تكلمتْ الفردوسُ قالت: قد أفلح المؤمنون.

وقد وصف الحق سبحانه الفردوس وصفاً يؤكد محبوبية اللَّه ووده لعباده، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ٤٧].

والنُّزُل: ما يُعدّه الإنسانُ لإكرام ضيفه من الإقامة ومُقوِّمات الحياة وترفها، والإنسانُ حينما يُعدُّ النُّزُلَ لضيفه يُعدّه على حَسْب قدراته وإمكاناته وعلمه بالأشياء، فما بالك إنْ كان المُعد للنُّزُل هو اللَّه تبارك وتعالى؟ ﴿نُزُلًا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣٢]، فالذي أعدَّ هذا النُّزُل، وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم، والذي يُعد نُزلاً لضيفه يُعده على قدر غناه وبسطة كرمه، فما بالك بنُزُل أعدَّهُ اللَّهُ لأحبابه وأوليائه؟

وقد جعل الحقُّ سبحانه من نعيم هذا الفردوس أن عبادَ اللَّه الذين أعرضوا عن اللغو في الدنيا ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۞ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

فمن معايب الدنيا ومصائبها أن نسمعَ فيها لغواً كثيراً لا فائدةَ منه، فهم لا يسمعون في جنة الفردوس لَغْواً ولا تأثيماً إلا كلمة سلاماً سلاماً، فهم يُسلِّمون على بعضهم، والملائكةُ تُسلِّم عليهم، وأشرف السلام في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨].

فهذا السلام ليس من البشر، لأن من البشر مَنْ يعطيك السلام وهو يُكنّ لك غير السلام، وقد يريد بك السلام ولكنه من الأغيار فيتغير، فلا يقدر أنْ يعطيك هذا السلام.

لكن إذا ما جاء السلامُ من اللَّه تعالى فهو سلامٌ من ربٍّ لا يعجزه شيء،

ولا يُعوزه شيء ولا تلحقه أغيار، لذلك يقول سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

والملائكة حين يقولون ذلك إنما أخذوا سلامهم من باطن سلام اللَّه تعالى، وحتى أصحاب الأعراف الذين لم يدخلوا الجنةَ ويرونْ أهلَ الجنة وأهلَ النار، هؤلاء يُلقون السلامَ على أهل الجنة، وهكذا يحيا أهلُ الجنة في سلام شامل ومحيط ومُطمئن، لأن الداعيَ هو اللَّهُ سبحانه، ولا أحدَ يُجبره على أن ينقض سلامه، فعباد اللَّه يُلقون في الجنة سلاماً من اللَّه، وسلاماً من الملائكة، وسلاماً من أهل الأعراف.

والحق سبحانه يقول عن خمر الآخرة التي لا تُذهب العقلَ، ولا تجعل صاحبها يهذي بلغو الكلام: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

واللغو هو العمل الساقط الذي لا فائدةَ فيه، مثلما يقول أهلُ الخمر بعضهم لبعض: يا نصاب، يا نجس، يا حرامي.. الخ. (فهزارهم) كله إثمٌ ولَغْوٌ، فالجنةُ ليس في شرابها لغوٌ ولا إثمٌ، فالجنة مبرأة عنهما، وشرابها لا يُذهب بالعقول.

وذلك مصداقٌ لقول الحق سبحانه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]، فهُمْ إنْ كانوا قد سمعوا لغواً كثيراً في الدنيا فلا مجالَ للغو في الآخرة، ثم يستثني من عدم السماع ﴿إِلَّا سَلَٰمًا...﴾.

والسلام ليس من اللغو، وهو تحية أهل الجنة وتحية الملائكة، قال الحق سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ..﴾.

فالذي يجعل للحياة الدنيا معنى، ويجعل لها طَعماً، ويجعل لها استقراراً أن يكونَ الإنسانُ في سلام، ومعنى السلام: الاطمئنان والرضا، فلا مُهيِّجات، ولا مُعكِّرات، ولا يأتي ذلك إلا بعدم اصطدام في مَلكات النفس، فيتحقق سلامُ الإنسان مع نفسه، وسلامُ الإنسان مع أهله، وهذا هو المحيط الثاني، وسلام الإنسان مع قومه، وسلام الإنسان مع العالم كله.

كلُّ ذلك اسمه سلام، أي: لا مُنغِّصَ، لا من نفسه، ولا من أهله، ولا من قومه، ولا من العالم، وكلما اتسعتْ رقعةُ السلام زاد إحساسُ الإنسان بالاطمئنان.

وحين يقول الحق سبحانه: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ . .﴾، فالسلام وارد في أشياء متعددة، والحق سبحانه يقول: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ * لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ * سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٦ ـ ٥٨].

وهذا هو السلام الذي له معنى، فهو سلامٌ من اللَّه. ولم يقُلْ سبحانه وتعالى: «سلامٌ يُورثك اطمئناناً ونفساً راضية» فقط، بل هو سلامٌ بالقول من اللَّه، وانظر أيَّ سعادة حين يخاطبك الحقُّ سبحانه وتعالى مباشرة.

وهناك فَرْق بين أنْ يُشيعَ اللَّهُ فيك السلامَ وبين أنْ يحييك كلامه بالسلام، وهذا هو السبب في قوله: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

إذن: فقول الحق: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ . . .﴾، نجد فيه كلمة السلام رمزَ الرضا والاستقرار في الجنة، فالسلامُ هو أولُ الأحاسيس التي تُحبها في نفسك، ولو كان الناسُ كلهم ضدك، لكنك ساعة تستقر، فأنت تُسائل نفسك: ماذا فعلت ليكون البعضُ ضدي؟

وحين تجيب نفسك: إنني لم أفعل إلا الخير. فأنت تُحسّ السلام في نفسك، وإذا ما رحَّب الآخرون بما تفعل، فالحياة تسير، بلا ضد ولا حقد.

وقد يُراد بالسلام السلامةَ من الآفات التي عاينوها في الدنيا، وهم في الآخرة سالمون منها، فلا عاهةَ ولا مرض ولا كدّ ولا نَصَب، ولكن نرجح هنا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا . . .﴾ المعنى الأول، أي: التحية، لأن السلام في الآية مما يُسمع.

فإن قلتَ: فكيف يُستثنى السلامُ من اللغو؟ نقول: من أساليب اللغة تأكيدُ المدح بما يشبه الذمَّ، كأنْ نقول: لا عيبَ في فلان إلا أنه شجاعٌ، وكنت تنتظر أن نستثني من العيب عيباً، لكن المعنى هنا: إن عددتَ الشجاعة عَيباً، ففي هذا الشخص عيبٌ، فقد نظرنا في هذا الشخص فلم نجد به عيباً، إلا إذا ارتكبنا مُحالاً وعددنا الشجاعةَ عيباً، وهكذا نؤكد مدحه بما يشبه الذم.

مما ذكره الفاكهي في كتابه (أخبار مكة) عن فضل مَنْ أعرض عن اللغو وتفاهات الأمور:

عن وهب بن منبه قال: بلغ عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما عن

مجلس كان في المسجد في ناحية بني سهم يجلس فيه ناس من قريش يختصمون فترتفع أصواتهم.

فقال لي ابن عباس رضي اللَّه عنهما: انطلق بنا إليهم.

قال: فانطلقنا حتى وقفنا عليهم.

فقال ابن عباس رضي اللَّه عنهما: أخبرهم عن الكلام الذي كلم به الفتى أيوب وهو في بلائه.

قال: قلتُ له: قال الفتى:

يا أيوب، أما كان في عظمة اللَّه وذكر الموت ما يكل لسانك، ويقطع قلبك ويكسر حجتك

يا أيوب، أما علمت أن للَّه عبادا أسكتتهم خشية اللَّه من غير عي ولا بَكم، وإنهم لهم النبلاء الطلقاء الفصحاء الألباء العالمون باللَّه وأيامه، ولكنهم إذا ذكروا عظمة اللَّه تعالى تقطعت قلوبهم، وكلَّتْ ألسنتهم، وطاشتْ عقولهم وأحلامهم؛ فَرَقاً من اللَّه عز وجل وهيبةً له، فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى اللَّه عز وجل بالأعمال الزاكية، لا يستكثرون للَّه الكثير، ولا يرضون له بالقليل، يعدون أنفسهم مع الظالمين والخاطئين وإنهم لأنزاه أبرار، ومع المضيعين والمفرطين وإنهم لأكياس أقوياء، ناحلون ذائبون، يراهم الجاهل فيقول: مرضى، وليسوا بمرضى، وقد خولطوا، وقد خالط القوم أمر عظيم.

قال أبو الحكم: وكتب إلي رجل أن ابن عباس رضي اللَّه عنهما قال لهم على إثر هذا الكلام: كفى بك ظالماً أن لا تزال مخاصماً، وكفى بك إثماً أن لا تزال مماريا، وكفى بك إثماً أن لا تزال مُحدِّثاً بغير ذكر اللَّه تعالى.

الاستجابة لآيات اللَّه وحُسْن استقبالها

عن علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه قال:

«قالَ اللَّهُ تعالى:

أنا اللَّهُ لا إلهَ إلا أنا

مَنْ أقرَّ لي بالتوحيد دخلَ حصني

ومَنْ دخلَ حصني أمنَ من عذابي»(١).

يقول الحق سبحانه عن صنف من عباده أنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، فهذه الصفة تتعلق باستقبال عباد اللَّه المؤمنين لآيات اللَّه وتوحيد اللَّه والذي به يستحقون الدخول في حصن اللَّه سبحانه، فهم حين يُذكّرون بها لا يخرُّون عليها صُماً وعُمياناً، إنما يخرون وهم مُبدون تمامَ السمع، ومُبصرون تمام البصيرة.

وقد أعطانا الحق سبحانه أمثلة حيَّة من موكب الأنبياء والمرسلين، وممَّنْ هداهم اللَّهُ واجتباهم للإيمان به سبحانه، فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا * وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٤ ـ ٥٧].

ثم قال سبحانه مُشيراً إليهم: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

فهم إذا تُليتْ آياتُ الرحمن خرُّوا وسقطوا بوجوههم سريعاً إلى الأرض، وهذا انفعالٌ قَسْري طبيعي، لا دَخْلَ للعقل فيه ولا التفكير، فهو ليس مجردَ سجود، بل سقوطٌ سريعٌ عفويّ.

---

(١) أورده المتقي الهندي في كنز العمال (١/ ١٢٧)، وأورده صاحب الإتحافات (٥٤) وذكره الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٤/ ٤٠٥١).

وقد وصف اللَّهُ هؤلاء في آية أخرى بأنهم (الذين أوتوا العلم) في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ٤٧].

فكلمة (يَخرّون) تُوحي بأنهم يسارعون إلى السجود، وكأنها عمليةٌ انفعاليةٌ غير إرادية، ليس لهم فيها تصرُّف، فبمجرد سماع القرآن يرتمون على الأرض ساجدين؛ لأنهم تفاعلوا معه، واختمرَ الإيمانُ في نفوسهم، ليس ذلك وفقط، بل ويخرُّون للأذقان سُجَّداً، ومعلومٌ أن السجودَ يكون على الجبهة، أما هؤلاء فيسجدون بالوجه كله، وهذا دليلٌ على الخضوع والاستسلام للَّه تعالى. ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤٨].

أي: يقولون حالَ سجودهم: سبحان ربِّنا الذي وفَّى بوعده في التوراة والإنجيل، وبعث الرسولَ الخاتم ومعه القرآن، سبحانه حقَّق لنا وَعْده وأدركناه وآمنَّا به، وكأن هذه نعمة يحمدون اللَّه عليها.

ثم يؤكد الحق سبحانه أمر الخرور للأذقان واصفاً بكاءهم وخشوعهم، فيقول تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

لقد خرُّوا ساجدين للَّه تعالى قبل ذلك؛ لأنهم أدركوا القرآنَ الذي نزل على محمد، وتحقَّق لهم وعدُ اللَّه فعاصروه وآمنوا به، أما هذه المرة فيخرُّون ساجدين لمَّا سمعوا القرآنَ تفصيلاً، وانفعلوا به، فيكون له انفعالٌ آخر؛ لذلك يزيد هنا الخشوع والخضوع، فيقول: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ . .﴾ [الإسراء: ١٠٩]، فكلما قرأوا آيةً ازدادوا بها خشوعاً وخضوعاً.

والحق سبحانه يعطينا وصفاً آخر غير الخرور والسجود، بل يصف قشعريرةَ الجلود وخفقان القلوب لآيات اللَّه سبحانه، فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فلماذا يُؤثِّر الانفعالُ بالقرآن في كلِّ هذه الحواس والأعضاء من جسم الإنسان؟ قالوا: لأن الذي خلق التكوين الإنساني هو الذي يتكلم، والخالق سبحانه حينما يتكلم وحينما تفهم عنه وتعي، فإنه سبحانه لا يخاطب عقلك فقط، بل يخاطب كل ذرة من ذرات تكوينك، لذلك تَخرُّ الأعضاء ساجدةً، وتدمع العيون، وتقشعر الجلود، وتلين القلوب، كيف لا، والمتكلم هو اللَّه؟

وهكذا نرى أن الجلودَ تقشعر خشيةً وخوفاً من وعيد اللَّه سبحانه، وإجلالاً لكلمات اللَّه سبحانه، ومن بعد ذلك تأتي الرحمةُ، وحينها لا تلين الجلودُ فقط، ولكن لا بدَّ أنْ تلينَ القلوبُ؛ لأنها هي التي تعطي اللمحة الإيمانية لكل جوارح الجسد.

والحق سبحانه يُبيِّن أن المؤمنين هم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ . . إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

والوَجَل هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرةٌ واضطرابٌ في القلب، وقد يقول قائلٌ: إذا كان ذكرُ اللَّه عزَّ وجلَّ يدفع قلوبَ المؤمنين إلى الوجَل، ألَا يتنافى مع قوْل الحق سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]؟

نقول: في الحقيقة لا يوجد تعارضٌ بين القولين؛ لأن ذكرَ اللَّه تعالى يأتي بأحوال متعددة، فإنْ كان الإنسانُ مُسرفاً على نفسه، فهو يرجفُ حين يذكر اللَّه الذي خالفَ منهجه، وإنْ كان الإنسانُ يراعي حقَّ اللَّه في كل عمل قدرَ الاستطاعة، فلا بُدَّ أن يطمئنَ قلبه لحظةَ ذكر اللَّه؛ لأنه اتبع منهجَ اللَّه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إذن: فالخوف أو الوَجَل إنما ينشأ من مهابة وسطوة صفات الجلال، والاطمئنان إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال؛ ولذلك تجمعهما آيةٌ واحدة هي قوْل الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالجلود تقشعر خوفاً ووَجَلاً ومهابةً من اللَّه عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطمعاً في حنان المنَّان سبحانه وتعالى؛ لأن ربنا قال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩].

إذن: فلا يقولنَّ أحدٌ إن هناك تعارضاً بين الوَجَل والاطمئنان، فكلها من ذكر اللَّه بالأحوال المتعددة للإنسان، فإذا ما وجلَ الإنسانُ فهو يتجه إلى فعل الخير فيطمئن. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقراره وأنسه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد.

ونعلم أن الإنسانَ له حواس إدراكية يستقبل بها المُحسَّات، وله عقلٌ يأخذ هذه الأشياء ويهضمها بعد إدراكها ويفحصها جيداً، ويتلمَّس مدى صدقها أو كذبها، ويستخرج من كلِّ ذلك قضيةً واضحةً يُبقيها في قلبه لتصبحَ عقيدة؛ لأنها وصلتْ إلى مرحلة الوجدان المحبّ لاختيار المحبوب.

وهكذا تمرّ العقيدة بعدة مراحل، فهي أولاً إدراك حسي، ثم مرحلة التفكر العقلي، ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة، ثم الاستقرار في القلب لتصبح عقيدة.

ولذلك يقول سبحانه: ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾، فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة، وقد يمر على القلب بعضٌ من الأغيار التي تزلزل الإيمان، ونقول لمَنْ تمر به تلك الهواجسُ من الأغيار: أنت لم تُعط الربوبيةَ حقها؛ لأنك أنت الملوم في أي شيء ينالك.

فالقلوب تطمئن بالقرآن، وما فيه من أخبار صادقة تمامَ الصدق، لتؤكد أن محمداً ﷺ مُبلِّغ عن ربه، وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ، بل هو من عند اللَّه.

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصدَّقوا ما جاء به، فها هي خديجة ـ رضي اللَّه عنه وأرضاها ـ لم تكُنْ قد سمعت القرآن، وما أن أخبرها رسول اللَّه ﷺ بمخاوفه من أن ما يأتيه قد يكون جناً، فقالت: «إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتُكسب المعدوم، وتَقْري الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق، واللَّه ما يُخزيك اللَّهُ أبداً»(١).

وها هو أبو بكر ـ رضي اللَّه عنه وأرضاه ـ يُصدق أن محمداً رسولٌ من اللَّه فَوْرَ أنْ يُخبره بذلك، وهكذا نجده ﷺ قد امتلكَ سماتاً، وقد صاغَ اللَّهُ

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣) وكذا مسلم في صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضي اللَّه عنها. ومعنى (تحمل الكل) أي: تعين المُثْقل ومنه الإنفاقُ على الضعيف واليتيم والعيال. و (تُكسب المعدوم) أي: تستفيد المالَ المعدوم، وقد كان النبيُّ ﷺ (محظوظاً في تجارته. و (تَقري الضيف) أي: تُطعمه طعامَ الأضياف. و (نوائب الحق): حادثات الأيام. انظر: شرح النووي على مسلم (٢/ ٥٦١)، وفتح الباري للعسقلاني (١/ ٢٤).

لرسوله أخلاقاً، تجعل مَنْ حوله يُصدِّقون كلَّ ما يقول فَوْرَ أن ينطق.

والمؤمن يذكر اللَّه بالخيرات، ويعتبر من كل ما يمر به، وبكل ما جاء بكتاب اللَّه، وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئن بذكر اللَّه؛ لأنه قد آمن إيمان صدق.

فذكر اللَّه إنْ جاء بعد المخالفة لا بُدَّ للنفس أن تخاف وتوجل وتضطرب هيبةً للَّه عزَّ وجلَّ، أما إنْ جاء ذكْر اللَّه بعد المصيبة أو الشدة، فإن النفس تطمئن به، وتأنس لما فيها من رصيد إيماني ترجع إليه عند الشدة، وتركن إليه عند الضيق والبلاء، فإنْ تعرَّضتَ لمصيبة، وعزَّتْ أسبابُ دَفْعها عليك تقول: أنا لي ربٌّ فلتجأ إليه.

ويعطينا الحقُّ سبحانه مثلاً حياً لسرعة استجابة مَنْ آمنَ باللَّه لآيات اللَّه ودلائله، فيقصُّ علينا ما وقع من سحرة فرعون عندما ظهرتْ لهم الحقيقةُ جليةً أمام عيونهم، وعلموا وأيقنوا أنهم كانوا في ضلال وإضلال.

فقد جمع فرعونُ السحرةَ من المدائن ليغلبوا موسى عليه السلام بسحرهم وينتصروا عليه. ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ [طه: ٦٥ ـ ٦٧].

فقد شعر موسى عليه السلام بالخوف لمَّا رأى حبالّ السحرة وعصيَّهم تتحول أمام النَّظارة إلى حيَّات وثعابين، وربما اكتفى المشاهدون بما رأوْه فهرجوا عليه وأنهوْا الموقف على هذا قبل أنْ يتمكَّن هو من عمل شيء.

لـذلـك ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٨، ٦٩].

لا تخفْ يا موسى، فأنت المنصور الفائز فاطمئن، فما كان الحق تبارك وتعالى ليرسله ثم يتخلَّى عنه.

وقد قال له ربه قبل ذلك: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]، وقال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فالحق سبحانه يعطي نبيه موسى الأوامر، ويعطيه الحجة لتنفيذها، ثم يتابعه بعنايته ورعايته.

هكذا كانت الصورة، فلما خاف موسى ثبَّته ربه، وأيَّده بالحقِّ وبالحجة

وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة ليُوجِّهه ويُعدِّل سلوكه، ويشدّ على قلبه.

فلا تخفْ لأني أنا الذي أرسلتُكَ، وأنا الذي أتولى حمايتك وتأييدك، فأنت معذورٌ في الخوف إنْ كنت بعيداً عني، فكيف وأنت في جواري وأنا معك؟

وها أنذا أخاطبك. ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠].

فالساحر يرى ما يفعله على حقيقته، وهم خيَّلوا لأعين الناس، لكنهم يرَوْنَ حبالهم على حقيقتها مجردَ حبال، وعصيَّهم مجرد عصيٍّ، أما عصا موسى فلم تكُنْ تخييلاً، بل وجدها السحرةُ حيَّة حقيقية، ولقفتْ بالفعل ما صنعوا، ولذلك خرُّوا ساجدين، وأعلنوا الإيمانَ بربِّ موسى وهارون.

هم إذن لم يعلنوا الإيمانَ بموسى وهارون، بل أعلنوا الإيمان ﴿بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٧٠]، لأنهم عرفوا بالتجربة أن ما ألقاه موسى ليس سحراً، بل هو من فعل خالق أعلى.

قال الزجاج[١] في هذا الموقف: عجيبٌ أمر هؤلاء، فقد ألقوا حبالهم وعصيَّهم للكفر والجحود، فإذا بهم يُلقون أنفسهم للشكر والسجود.

نعم، لقد دخلوا كافرين فجرةً، فخرجوا مؤمنين بررة[٢]؛ لأنهم جاءوا بكل ما لديهم من الكيد، وجمعوا صفوة السحرة وأساتذته ممن يعلمون السحر جيداً، ولا تنطلي عليهم حركاتُ السحرة وألاعيبهم، فلما رأوْا العصا وما فعلتْ بسحرهم لم يخالطهم شك في أنها معجزةٌ بعيدة عما يصنعونه من السحر؛ لذلك سارعوا ولم يترددوا في إعلان إيمانهم بموسى وهارون.

وهذا يدلنا على أن الفطرةَ الإيمانية في النفس قد تطمسها الأهواءُ، فإذا تيقظتْ الفطرة الإيمانية، وأزيلت عنها الغشاوةُ سارعتْ إلى الإيمان وتأثرتْ بها.

---

(١) هو: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد ٢٤١ هـ، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو، أدَّب القاسمَ ولد عبيد الله بن سليمان وزير المعتضد العباسي. (الأعلام للزركلي ١/ ٤٠).

(٢) أورد ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٥٨) قول ابن عباس وعبيد بن عمير عن سحرة فرعون: كانوا أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة.

لقد سارع السحرةُ إلى الإيمان، وكان له هَوَىً في نفوسهم، بدليل أنهم سيقولون فيما بعد: ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ . . .﴾ [طه: ٧٣]، فكانوا مُكرهين، كانوا أيضاً مُسخَّرين، بدليل قولهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

وقوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا . . .﴾، فَرْقٌ بين ﴿فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ . . .﴾ [الشعراء: ٤٤]، وهذا منهم عمل اختياري، وبين ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا . . .﴾ [طه: ٧٠]، يعني: على غير اختيارهم، وعلى غير إرادتهم، كأن صَوْلة الحق فاجأتْ صحوة الفطرة، فلم يملكوا إلا أنْ خرُّوا للَّه ساجدين، فالإلقاء هنا عمل تلقائي دون تفكير منهم، ودون شعور، فقد فاجأهم الحق الواضح والمعجزة الباهرة في عصا موسى؛ لأنها ليست سحراً، فهم أعلمُ الناس بالسحر.

ونلحظ في هذه الآية أنها جاءتْ بصيغة الجمع: ألقى السحرةُ، قالوا آمنَّا، لتدلّ على أنهم كانوا يداً واحدة، لم يشذّ منهم واحد، مما يدل على أنهم كانوا مُكْرهين مُسخَّرين.

والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة، وأن السجود تمَّ منهم دون تفكير؛ لأنه أمرٌ فوق إرادتهم، وكأن جلالَ الموقف وهيبته وروعة ما رأوْا ألقاهم على الأرض ساجدين للَّه، صاحب هذه الآية الباهرة، لذلك لم يقولوا عندها آمنا برب موسى وهارون، إنما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

وهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كلُّ شكٍّ، إيمان خطف ألبابهم، وألقاهم على الأرض ساجدين للَّه، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها.

ومن آيات اللَّه التي لا بُدَّ أن يقف عندها المؤمنون ويتأملوها ويتفكروا فيها، ويسجدوا للَّه عزَّ وجلَّ مُوجدها ومُنشئها في هذا الكون، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وهكذا يلفتنا اللَّهُ جلَّ جلاله إلى آياته التي في السماوات والأرض لنُعملَ فيها العقل والإدراك، لنستنبطَ منها ما يعطينا الحضارة، إن القرآنَ يطالبنا بأنْ نواصل العلم الذي علَّمه اللَّه لآدم، وإذا كان تاريخُ العلوم يحمل لنا أخباراً عن قوم لم يكونوا مؤمنين، ومع هذا سبقونا في العلم والاستنباط، فكان الواجب علينا نحن المؤمنين أن نتأملَ آيات اللَّه تعالى في الأرض. ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

إن لهذا العالم خالقاً قادراً، إلهاً قوياً، آمنَّا به، ورأينا جميل صُنْعه في السماء والكواكب، وأُعجبنا بدقة نظام سَيْر تلك الكواكب.

ونرى التوقيت الدقيق لظهور الشمس والقمر ومواعيد الخسوف الكلي أو الجزئي، ونُبهَر بدقة المنظِّم الخالق سبحانه وتعالى، ولن نجد زحامَ مرور بين الكواكب يُعطل القمر، أو يُعطل الأرض، ولن يتوقف كوكبٌ ما لنفاد وقوده، بل كما قال اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وحين تتأمل السماوات والأرض تجد في الأرض جبالاً شامخة، وتمر عليها فتُدهش من دقَّة التكوين ودقَّة التماسك، وتجد في داخلها نفائسَ ومعادن بدرجات متفاوتة، وقد تجد أسطحَ الجبال مُكوَّنة من مواد خصبة بشكل هَشٍّ، فإذا ما نزل عليها المطر، فهو يصحبها معه إلى الأرض، لأنها تكون مجرد ذرات كذرات برادة الحديد، وتتخلل الأرض التي شققتها حرارة الشمس.

ولو أن الجبالَ كلها كانت هَشَّة التكوين، لأزالها المطر مرة واحدة، وجعلها مجرد مسافة نصف متر مُضَاف لسطح الأرض، ولاختفى الخصبُ من الأرض بعد سنوات، لكن شاء الحقُّ سبحانه أن يجعل الجبال متماسكةً، وجعل سطحها فقط هو الهشّ لينزل المطرُ في كل عام مرة، ليحمل الخصب إلى الأرض.

وما دام الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد قال: (يعقلون) في مجال النظر في السماوات والأرض، فهذه دعوةٌ لتأمل عجائب السماوات والأرض. ومن تلك

العجائب أن الجبال الشاهقة لها قمةٌ ولها قاعدة، مثلها مثل الهرم، وتجد الوديان على العكس من الجبال؛ لأن الواديَ يكون بين جبليْن، وتجد رأس الوادي في أسفله، ورأس الجبل في قمته.

وحين ينزل المطرُ فهو يمرُّ برأس الجبل الضيِّق، ليصلَ إلى أسفل قاع الوادي الضيق، وكلما نزل المطر فهو يأخذ من سطح الجبل، ليملأ مساحة الوادي المتسعة، وكلما ازداد الخَلْق، زاد اللَّه سبحانه رقعةَ الاقتيات.

ومثال ذلك تجده في الغرين الطمي القادم من منابع النيل، ليأتي إلى وادي النيل والدلتا، وكانت هذه الدلتا من قبل مجرد مستنقعات مالحة، وشاء لها الحقُّ سبحانه أنْ تتحوَّل إلى أرض خصبة.

وحين نتأمل ذلك نرى أن كلَّ شيء في الكون قد أوجده الحق سبحانه بحساب، والذي يفسد الكونَ هو أننا لا نقوم بتكثير ما تكاثر، بل ننتظر إلى أن تزدحمَ الأرضُ بمَنْ عليها، ثم نفكر في استصلاح أراضٍ جديدة، وكان يجب أن نفعلَ ذلك من قبل.

وكلما نزل المطر على الجبال فهي تتخلخل وتُظهر ما فيها من معادن يكتشفها الإنسان، ويُعمل عقله في استخدامها.

والمؤمن حين يرى ذلك يزداد إيماناً، وكلما طبَّق المؤمنُ حكماً تكليفياً مأموراً به، يجد نورَ الإيمان وهو يشرق في قلبه.

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، والكون كله أمامهم، فلماذا لا ينظرون؟ إنهم يُبصرون ولا يستبصرون، مثل الذي يسمع ولا يسمع.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٤١].

إذن: فعدم إيمانهم أفقدهم البصيرة والتأمل.